ماذا بعد هذه الحرب المُعلَنة على التاريخ والعقيدة، ولمصلحة من تدور رحى هذه الحرب؟

(٣)

دكتور

جورج حبيب باوي

٢٠١٦

www.coptology.org

القياس الصحيح:

يظن من يتابع الحرب الإعلامية الدائرة أننا كمن يشاهد فريقين في ملعب كرة قدم يقذفون الكرة ويهاجمون حسب "شطارة" أو "مهارة" التصويب، وأننا إزاء تسجيل أهداف تُحسب على فريقٍ ضد آخر .. نسينا أهم ما يجب أن نحرص عليه، وهو أننا في "كنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية".

كان معلمنا العظيم أثناسيوس يكتب سائلاً عن المعنى الكنسي أو الشرح الكنسي للأسفار، وهو الشرح الذي غاب عن هجوم الأريوسيين (راجع ضد الأريوسيين ١: ٣٧ عن التفسير الخاص، ثم ١: ٤٤ عن المعنى الكنسي، ثم قاعدة التفسير الأريوسي ١: ٥٢)، وهي تحديداً اعتبار الرأي الخاص هو الرأي الذي يجب أن يسود حتى على ما جاء في الأسفار، وأن الشرح الكنسي هو "مجال الأسفار" (الرد على الأريوسيين ٣: ٢٨، ٢٩، ٣٥).

القياس الصحيح والقياس المكسور

القياس الصحيح هو استعلان الله الكلمة في الجسد، وهو شهادة الأسفار، وما طُبع في حياة الكنسية من ممارسة؛ لأننا نمارس تجسد ابن الله، ليس فقط في القُدَّاسات، حيث "جسد ودم عمانوئيل إلهنا" بين أيدينا، بل وجودنا ذاته في مبنى الكنيسة، حيث "الإجتماع بالرب"؛ لأننا "أعضاء جسده من لحمه وعظامه". ولذلك السبب كانت دراستنا عن "تطور النظرة إلى التطهيرات الجسدية"[١] بشكلٍ عام، وإلى نصف أعضاء الجسد، وهؤلاء هن السيدات من الأمهات والأخوات والزوجات "الوارثات معنا نعمة الحياة الأبدية"، وهؤلاء لسن أقل ولا أعظم، ولا هن في نجاسة؛ لأن القياس هو

(١) راجع كتابنا: تطور النظرة إلى التطهيرات الجسدية في الطقوس والقوانين الكنسية من العصر الرسولي حتى العصر الحديث، القاهرة ٢٠١٣.

"كنيسة واحدة مقدسة" قُدِّست **أولاً**: باتحاد اللاهوت بالناسوت في شخص الـــرب، ومن هذا الاتحاد وُلِدَت السرائر. **وثانياً**: لأن التقديس لا ينبع من الكنيسة، أي اجتماع المؤمنين، بل من الروح القدس الذي يعطي "قداسته لنا" (عب ١٢: ١٠).

أما القياس المكسور، فهو ذلك الذي انفرد بالمرأة، ونسى عن جهلٍ أو عـــن عمدٍ –الرب يعرف القلوب– أننا إزاء عضوٍ في جسد المسيح. والكسرُ جاء من تعليمٍ مزيَّفٍ شيطاني ينكر تقديس الجسد الذي وَضَعَ الربُّ أساسه بتجسده، والذي يُوهَب في "حميم الميلاد الثاني"، ويقدَّس بمسحة الميرون. وكسرُ القياس، هو كسرُ "الإفـــراز"، هو محاولة وضع عوائق لا علاقة لها بالتعليم المسيحي، ولا هي من الإيمـــان، أي مـــن البشارة السارة التي قدَّمها لنا الرب يسوع بنفسه.

القانون فوق الإيمان!

عندما نسمع صراخَ فريقٍ في ملعب الحرب الدائرة، يصرخ: الدسقولية، دون أن يقول لنا أية دسقولية؟ هل هي الوثيقة التي أفنى د. وليم سليمان حياته في بحثها، أم النص المختصر الذي تُرجم ونُشر عدة مرات، أم الدسقولية السريانية؟ ومع احترامـــي الشديد لهذه الوثائق مجتمعة، أعود إلى القياس الصحيح: هل القانون الكنســـي فـــوق الإيمان، وفوق الممارسة الإيمانية؟ فإذا جاء قانونٌ وحذف أو ألغى تقديس الجسد، وهو تقديسٌ أبديٌّ، ليس من صُنع الإنسان، بل هبة الله الآب في يسوع، ويعطى بـــالروح القدس، فهل يجب أن نأخذ بما جاء في القانون، مهما كان مصدره؟ ألم ينشأ الإيمـــان المسيحي بالإله المتجسد باستعلان يسوع المسيح، لا بقانون أو بشريعة؟ وإذا وضع هذا الإستعلان تحت أحكام القوانين، مهما كانت، فهل هذا يعد فهماً سليماً؟

سمعت شيطاناً صغيراً يقول: ولكن الإيمان نفسه له اسم "قـــانون الإيمـــان"، ودُهشت؛ لأن الإسم الليتورجي هو: "الأمانة"، حسب كل ما لدينا من مخطوطـــات وكتب طقسية. وقد نقلنا اسم "قانون الإيمان Creed" من كثرة مطالعتنا لأداب الغرب

وتركنا الإسم القبطي "الأمانة" (راجع مثلاً خولاجي الدير المحرق، ص ٢٣٤: يقول الشعب الأمانة الأرثوذكسية، ثم أضاف بعد ذلك بين قوسين (أي قانون الايمان). وحتى مع الاحتفاظ باسم "قانون"، فهو ليس شريعةً، بل سبق الإيمانُ القانونَ؛ إذ لم يؤسس القانونُ الإيمانَ، بل استعلان يسوع المسيح الله الذي ظهر في الجسد (١تيمو ٣: ١٦).

الترتيب الكنسي:

غاب القياس الذي يجعل الإيمان فوق القانون، وكُسِرَت الأيقونة بحذف تقديس الكنيسة بالروح القدس، ثم جاءت الكارثة الثالثة، وهي غياب الترتيب الكنسي. والترتيب أي ἀκολουθία وتعني ترتيب فصول كتاب (راجع النيسي ضد أنوميوس ١١)، بل تعاقب الفصول (النيسي عظة ١٣ على سفر النشيد)، ولكن الأهم هو ترتيب تدبير الخلاص من الخلق من العدم إلى التأله (النيسي عظة ٥ على سفر النشيد وتعليم الموعوظين ٢٤) لأن أصل الكلمة ἀκολουυθος تعني ما هو موافق (كيرلس الكبير شرح إنجيل يوحنا ٤: ١)، فما هو موافق وملاءم حسب مجال الأسفار وحسب تجسد ابن الله وحسب ما نعترف به في الإيمان، أي حسب الأمانة (قانون الإيمان) أن ما لدينا وسُلم إلينا هو شريعة. ألم يكن ترتيب الأسفار نفسه هو الذي جعل سفر النشيد يُشرح رمزياً؛ لأن الإنسان ارتفع فوق ما هو حسي ومادي وأصبح "عشق الجسد" له دعوة إلى أن يُقدَّس بالروح القدس، وعند ذلك يصبح "الترابي" علامةً ورمزاً يجب أن يُفهم سمائياً؟ ألم يقل رسول الرب إن العهد القديم هو عهد الظلال (عب ١٠: ١)، وإنه عهدٌ قديم شاخ ولم يعد صالحاً للاستعمال (عب ٨: ١٣)؟

ألم يأتِ الترابي (الجسداني أولاً، ثم بعد ذلك الروحاني أو السمائي)؟ ثم أليس هذا هو ترتيب التدبير: أن الكلَّ مات في آدم: "كما في آدم يموت الجميع"؛ لأنه دعي إلى حياةٍ أعظم: "كذلك في المسيح سيُحيا الجميع" (١كو ١٥: ٢١ وأيضاً ١٥: ٤٧-

٤٩)؟ وعلى أي أساسٍ إلهيٍّ أبطل الآباءُ الرسل شرائع التطهيرات، وشرائع النجس والطاهر في الطعام والشراب (أع ١٥: ٢٨-٢٩)؟ وعبارة "قد رأى الروح القدس ونحن" ليست شريعةً وُضِعَت، بل اعترافٌ بما استُعلِن في يسوع المسيح، وقبول الأمم للإيمان بالإنجيل حسب شهادة يعقوب الرسول (أع ١٥: ١٣-٣١). ولذلك، عندما يقول اليهودي المتنصِّر شاول الطرسوسي بولس الرسول إن كل ما كان له مكسباً حسب الشريعة، وهو:

+ الأصل العرقي من سبط بنيامين عبراني.

+ التمسك بالشريعة فريسي.

+ حافظ عهد ابراهيم مختون في اليوم الثامن.

+ من جهة البر الذي حسب الشريعة بلا لوم.

ويختم بهذه الصرخة التي لا يجب أن تضيع في زحمة مباراة الكرة التي يلعبها فريق يلاعب نفسه: "لكن"، أي بعد أن حَسِبَ الربحَ، فقد حسبته "خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي الذي من أجله خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية (زبالة) لكي أربح المسيح وأُوجد فيه". ولعل تلك الكلمات تصدم ضمائر تكاد تموت بسبب سخونة الحرب: "وليس لي بري الذي من الشريعة قبل الذي بإيمان المسيح، البر الذي من الله بالإيمان" (فيلبي ٣: ٨). والسبب: "لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبهاً بموته لكي أصل إلى قيامة الأموات" (فيلبي ٣: ١٠).

التجسد والنص:

تقابلت مع الراحل الكريم د. نصر حامد أبو زيد، وكان آخر لقاء لنا في جامعة نوتردام – انديانا في مؤتمر عالمي عن علوم القرآن، عُقد في ٢٠٠٦. وكنت قد

قرأت بدقة كتابه "مفهوم النص"، فقد حاولت أن أعرف ما هي أبعاد مشكلة د. نصر حامد أبو زيد. كما حاولت أن أعرف أيضاً ما أحاط بكتاب د. محمد خلف الله "القصص الفني في القرآن"، وكان كلاهما صادقاً لا يهاب الحوار. والسبب الوحيد هو العودة إلى دراسة الثقافة العربية الإسلامية التي امتدت مثل شجرة كبيرة يجلس تحتها الأقباط والمسلمون معاً. والثقافة الوطنية المصرية إسلامية التكوين والهدف، وتحتوي على أنماط فكرية وإنسانية ونظرة توافقية. ومهما اختلف مؤرخو الثقافة المصرية حول ما كتبه د. نصر حامد أبو زيد، إلا أنه كان ثاقب الرؤيا عندما كتب: "ليس من قبيل التبسيط أن نصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها حضارة "النص" بمعنى انها حضارة اثبتت أسسها وقامت علومها وثقافتها على أساس لا يمكن تجاهل مركز النص فيه. وليس معنى ذلك أن "النص" بمفرده هو الذي أنشأ الحضارة، فإن النص أياً كان لا ينشئ حضارةً ولا يقيم علوماً وثقافةً. إن الذي أنشأ الحضارة وأقام الثقافة جدُل الإنسان مع الواقع من جهة، وحواره مع النص من جهة أخرى. إن تفاعل الإنسان مع الواقع وجدله معه –بكل ما ينتظم في هذا الواقع من أبنية اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية– هو الذي ينشئ الحضارة " (مفهوم النص، الناشر المركز الثقافي العربي – الطبعة الثانية، ص ٩).

الثقافة العربية الإسلامية ولدت بميلاد الإسلام، فقد وحَّد الإسلام قبائل الجزيرة وخلق تحالفاً واسعاً ضم كل أملاك الإمبراطورية الرومانية الشرقية في مُلك الأمويين والعباسيين. وبعد عدة نكسات، جاء مُلك الأتراك العثمانيين، واستطاعت الشعوب أن تضع تراثها الفارسي والمصري والآرامي في إطار عربي بدأ في دمشق وبغداد والقاهرة، ونقل السريان كتب أرسطو، فلم يكن بين العرب من أتقن اليونانية، بل كان السريان هم الذين قاموا بالتعريب؛ لأنهم كانوا يعرفون اللغتين اليونانية والعربية. وحتماً في فيض المعرفة الوافد من الحضارات القديمة، كان نص القرآن هو المرجع الأول والأخير. أمام زحف الفكر الفلسفي اليوناني والفارسي والمصري، ظلَّ نص القرآن هو حصن الدين الحنيف، وهو هنا الوضع الطبيعي والتاريخي؛ لأن القرآن

جاء بقراءة متعددة لما جاء في المسيحية وفي اليهودية أيضاً، وظل نص القرآن مع تعدد الخطاب الديني المسيحي واليهودي في عصر الأمويين والعباسيين والعثمانيين هو القول الأول والأخير. ورغم اختلاف مفسري القرآن، إلا أن عصمة التنزيل جعلت من النص المحور الأساسي.

والسؤال الحاسم: كيف نُقِل هذا إلى تراثنا المسيحي؟

حدث ذلك عبر تطورٍ بطيء غير ملحوظ:

أولاً: هجوم على الكتاب المقدس، واتهام عام بأن الكتاب تم تحريفه، مما دفع الذين كتبوا دفاعاً عن أسفار العهدين، الوصول إلى ذات المعتقد الإسلامي، أي الاعتقاد بتنزيل الكتاب المقدس، وترى ذلك في استخدام كلمة "آية" عند اقتباس كلمات الوحي، وهو بلا شك من تأثير الثقافة الإسلامية؛ لأن ما ورد في القرآن هو "آيات"، و"تنزيل من رب العالمين"، ولذلك يجب أن يكون الكتاب المقدس في ذات المنزلة.

ثانياً: إن استخدام كلمة "آية" لنص من الكتاب المقدس، لم يظهر إلا مع القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وفي منشورات المبشِّرين الإنجيليين، وليس قبل ذلك. ومع هؤلاء، جاءت فكرة عصمة الكتاب المقدس، وهو ما لا تجده عند علماء الأقباط والسريان والروم في العصر الوسيط.

ثالثاً: القراءة المغلوطة للتاريخ الكنسي، وبالذات مواجهة الكنيسة للهرطقات، التي رأى الذين كتبوا ولا زال يكتبون، أن صراع الكنيسة مع الأريوسية كان صراعاً على شرح أو تفسير نصوص معينة في أسفار العهدين، و لم يفطن هؤلاء إلى أن الخلاف كان على:

+ استعلان الثالوث وليس الآب وحده.

+ مصير الإنسان الأبدي.

+ الشركة الكيانية بين الثالوث والإنسان صورة الله.

+ السرائر والصلاة والحياة الروحية.

هذه البنود الأربعة هي استعلانات أو أفعال عبَّرت عنها النصوص، ولكن لم تُنشئها النصوص. الحدثُ يسبق النص، والنص يشهد للحدث. الحدثُ فعلٌ، وقد يكون فعلاً دائماً مثل تجسد ابن الله، أو إنسكاب الروح القدس. هذه أفعال إلهية لم تنشأ بنصوص.

التجسد هو فعلٌ إلهيٌّ دائمٌ، وهو الذي أسس الكنيسة، وهو الذي جعل الكنيسة جسد المسيح. كان الفعل هو سبب وأصل وجود النص، ولم يؤسس النصُّ فعلاً. في مواجهة الرب مع التلاميذ كان وجوده بينهم هو الذي جعله يقول: "خذوا كلوا هذا هو جسدي"، ولولا العطاء بيديه، أي الفعل، لفقدت الكلمات معناها، ولكن الأهم هو أن الفعل هو الذي أسس الليتورجيا: "اصنعوا هذا لذكري".

"الكلمة صار جسداً"، ولم يقف استعلان الكلمة عند التجسد، بل حرفياً: "وسكن فينا"، أو "سكن، أو حل بيننا"، أي صار كواحدٍ مِنَّا، ليس كما قيل في التكوين: "صار كواحد منا عارفاً الخير والشر"، بل صار كواحد منا "رأس الخلقة الجديدة، وبداية تكوين جديد بآدم جديد". ولذلك، صار معنى الكلمات: "في البدء خلق الله السموات والأرض"، هو "في البدء كان الكلمة .. والكلمة صار جسداً". كما لاحظ العلامة أوريجينوس في افتتاحية شرح إنجيل يوحنا أن البدءَ الجديد صار يشرح البدءَ الحقيقي الذي به صار للبدء القديم دخولٌ في شركةٍ جديدة.

ربما حدث التحول نحو سيادة الشريعة مع الاتجاه القانوني لأبي الفرج ابن الطيب صاحب كتاب "فقه النصرانية"، وهو المرجع الذي اعتمد عليه أولاد العسال

في وضع القالب القانوني للعصر الوسيط، والمجموع الصفوي. ولكن لم يكن الشرق وحده هو الذي دخل نفق سيادة القانون على الإيمان، إذ حدث نفس الشيء في كنائس لم تكن لغتها العربية مثل كنيسة اليونان التي صار "الشرع الكنسي" المصدر الأول لديها.

ودخلت الحياة الليتورجية نفق الشريعة في تصنيف كتب مثل "الميناون"، والأهم هو كتاب "التيبكون Τυπικον"، وكلاهما قَنَّن ما يُخدم، وما يُقال، فصارت الليتورجية خدمةً ثابتةً انعدمت فيها الحرية، رغم الغنى اللاهوتي الفائق في الأناشيد والصلوات التي هي صوت الآباء القديسين.

في عصرنا الحديث، ومع اشتعال حرب النصوص، بدأت ملامح الأسلمة بظهور عهد الأئمة، وأهم هؤلاء: الأنبا شنودة الثالث، ثم الأنبا بيشوي، والأب متى المسكين. والأول والثالث لم يكن لديه أي رغبة أو تطلع لأن يكون إمام شيعة، ولكن المحاربون قسَّموا الكنيسة إلى مذهبين: مذهب الأنبا شنودة، احتل فيه الأنبا بيشوي منصب الإمام الأكبر، ومذهب الأب متى المسكين الذي انضم إليه ١٩ اسماً، كان كاتب هذه السطور واحداً منهم.

وحرب النصوص هي منهج حركة الإصلاح. فقد قام لوثر وغيره، بنقدٍ حاد عنيف لكنيسة روما، وكان شعار هذه الحركة، كما صيغ في عبارة لاتينية موجزة هو:

Sola Scriptura, Sola Fide, Sola Gratia.

أي:

الكتاب المقدس وحده – الإيمان وحده – النعمة وحدها.

وإذ كانت كلمات "الإيمان وحده"، و"النعمة وحدها" قد سقطت، فقد بقيت الكلمتين: "الكتاب المقدس وحده". من هنا اشتعلت حرب النصوص منذ القرن

السادس عشر.

الأخطاء القاتلة لحرب النصوص:

أولاً: فقدان الأيقونة الكاملة لموضوع البحث، والانحصار في محاور تدمر جمال الأيقونة. خير مثال على ذلك، هو حرب النصوص الدائرة عن الخطية الأصلية. ما الذي فُقِد من الأيقونة؟

ما فُقِد هو "الصورة الإلهية" التي لم تَمُت مطلقاً، بدليل أن ابراهيم ويوسف وأنبياء وبعض ملوك العهد القديم، كان لهم إيمان ومعرفة بالله، ونالوا هبات الروح القدس حسب شهادة سفر القضاة وباقي الأسفار التاريخية. ولكن لم نحاول أن نشرح تاريخ هؤلاء الأبطال الذين مُدحوا بشكل فائق في (عب ص ١١)، وهكذا ضاعت أيقونة تدبير الخلاص باللف والدوران حول "البدلية" "والموت العقابي" و"دفع الثمن"، وغيرها من أفكار تجديفية، هدمت صلاح ومحبة الله. وصار حشد النصوص للدفاع عن أيٍّ من هذه المحاور، هو فقدان للصورة الكاملة.

ثانياً: الفَصلُ بين الإيمان، وما يُمارَس في الليتورجية. وخير مثال على ذلك هو كيف يكون الابن ثمناً يُدفع للآب، في ذات الوقت الذي يمسك فيه أحد أعضاء هذا الفريق الكروي، بالصينية حاملاً جسد الرب، وأمامه الكأس على المذبح، ليقول إنه يعترف "إلى النفس الأخير أن هذا هو الجسد المحيي الذي أخذه ربنا من والدة الإله، وجعله واحداً مع لاهوته، وأسلمه عنا على خشبة الصليب بإرادته وحده عنا كلنا"، ثم يُعلِّم بغير ذلك؟ ألا يكون بذلك قد هدم الممارسة بتعليم افتراضي لا وجود له؟

ثالثاً: التشيُّع، إما للأنبا شنودة الثالث، وإما للأب متى المسكين، والذي انضم إليه قائمة أخرى معروفة نُشرت اسمائهم مقرونةً بالصور، من أجل مزيد من التحريض. وصار أي نقد لتعليم الأنبا شنودة الثالث، هو نقد لتعليم الكنيسة. صار الأنبا شنودة الثالث = الكنيسة. وهو ما أصبحنا نراه في ختام طقس الرسامات، إذ يؤدي كل

كاهن وأسقف هذا التعهد بالولاء للبابا، وهو ما لم يكن معروفاً في طقسنا، ولا وجود له لدى الكنائس الأرثوذكسية الأخرى (حسب كتب الخدمة).

رابعاً: صارت العقائد أفكاراً بلا ممارسة؛ إذ كيف تمارِس دفع الثمن للآب؟ وهو ما يجعلني أرى في هجوم بعض المتطرفين من الإنجيليين على رشم الصليب، تطوراً طبيعياً لاعتقادهم بفكرة دفع الثمن، إذ صار الصليبُ علامة اللعنة، وعلامة إرضاء العدل الإلهي عندهم.

قائمة الخسارة تطول، ولكن يجب أن نتوقف أمام أهم خسارتين:

الخسارة الأولى: خَسِرنا أن ما أُعلن هو ما نشارك فيه؛ لأننا دُعينا إلى شركة حياة الثالوث في الابن وبالروح حسب التسليم الذي ذكره معلمنا اثناسيوس في رسائله إلى سرابيون. وصار ما أُعلن مجرد فكرة لا شركة فيها في الثالوث؛ لأن الشركة أضحت شركة في قوة أو طاقة حسب تعليم المطران، وليست شركة في الله الثالوث، إذ يظل الثالوث بعيداً عنا مثل آلهة الديانات الأخرى.

الخسارة الثانية: خَسِرنا رؤيتنا للتحول الكياني الذي يجعلنا أخوة الرب، باعتباره هو "البكر". ذلك التحول الذي يجعل الرب رأس أعضاء جسده بالمعنى الحقيقي، الذي نمارسه في قبوله هو بالذات أقنوماً وقوةً وطاقةً ونعمةً ونوراً وخلاصاً وفداءً وقيامةً وحياةً أبديةً؛ لأن القوة والطاقة والنعمة والخلاص والفداء والقيامة والحياة الأبدية هي صورة أو أيقونة المسيح نفسه.

يتبع،،،،

د. جورج حبيب بباوي